تكامل المعرفة النظرية والتطبيق في نتاج شوقي ضيف

أ.د. عبد الحكيم راضي(*)

-١-

يهدفُ هذا البحث إلى تحرير معاني بعض المصطلحات الشائعة خاصةً حين إطلاقها في سياق الحديث عن راحلنا العظيم شوقي ضيف، من ذلك: مفهوم تاريخ الأدب، ومفهوم الدرس الموسوعي؛ إذ كثر الحديث - في سياق التعرّضِ لجهده الجبّار في دراسة التراث العربي - عن هذا الجهد باعتباره جهدًا موسوعيًّا من جهة، وباعتباره مجرد (تاريخ للأدب) من جهة ثانية، مع إشارات تومئ إلى التبسيط من قيمة كلٍّ من الصفتين: الموسوعية وتاريخ الأدب، خاصةً حين يُستمدُّ الدليلُ من تعدّدِ المجالات التي أَلِفَ فيها، وكثرة ما ألفه في كلٍّ منها .

وتكشف النظرةُ المتأنيّة إلى نتاج شوقي ضيف عن أنَّ غايته - أو مشروعه العلمي - كانَ يرمي إلى تقديمِ صورةٍ وافيةٍ للأدب العربي في مختلف عصوره ومراحله، أو لنَقُلْ: هو رسمُ خريطةٍ كاملة لهذا الأدب، وهي خريطة (مجسّمة) - إن جاز التعبير - بمعنى أنها لا تُعنى بالمساحة المكانية أو المدى الزمني أو الظروف المصاحبة للنتاج الأدبي فحسب، وإنما تحاول أن تبرز (العمقَ) أيضًا . بعبارة أخرى: إنَّ هذا المشروع لا ينحصر في ما يمكن تسميته بـ (التاريخ التراكمي) للوقائع والملابسات التي أحاطت بالأدب العربي في مختلف مراحله، وإنما استهدف تقديم ما يمكن تسميته بـ (التاريخ الفني) لهذا الأدب.

وإذا كان الوفاء بمثل هذا المشروع يندرج تحت مقولة الغاية، كما ينتحي التناول الفني ناحية المدخل والمنهج - فإنَّ كلاًّ من الغاية والمنهج كان يقتضي الاضطلاع بما يلزمه، أعني: الاضطلاع بما يلزم لتحقيق الغاية، والأخذ بأسباب المنهج، وهو ما يدخل في عداد الوسائل والأدوات .

إنَّ بداية نشاطه الجامعي بدراسة "النقد الأدبي في كتاب الأغاني" إنما تعني أنَّهُ بدأ حياتَه العلمية بنظرةٍ شاملة إلى مساحةٍ واسعة ومدىً زمني معقول من حياة الأدب العربي، كما تعني في الوقت نفسه أنه وضع يده على أسس النظرية الفنية التي واكبتْ رحلة ذلك الأدب: شعره ونثره، إنها بداية موفّقة لباحثٍ

(*) أستاذ البلاغة بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة.

أخذ على عاتقِه أن يشيّد التاريخَ الفني للأدب العربي، مستمدًّا منهجَه وأدواتِه ومصطلحاتِه من معطيات تلك النظرية.

-٢-

والواقعُ أنَّ تأمُّلَ السيرةِ العلمية لشوقي ضيف - فكرًا وسلوكًا - يكشفُ عن أمورٍ، بعضها مبدئي وبعضها منهجي.

أما الجانب المبدئي فيتركز في مسلمتين؛ أولاهما: وحدة التراث العربي الإسلامي، والثانية: خضوعه في إطار الوحدة والتماسك لسُنّة التجديد والتطور.

وتقوم وحدةُ التراث على مستويين؛ الأول: يرتكز على محورين، أحدهما: تسلسل أجزاء كلِّ مجال من مجالات التراث، أو طبقاته المتعاقبة وتماسكها. ومفهوم المجال هنا هو المجال المعرفي، كعلم التفسير وعلم الحديث وعلم القراءات والنحو واللغة والبلاغة، وما عُرِف بـ (علوم الأوائل) كالفلسفة والطب والطبيعة والكيمياء والرياضة ... إلخ. حيث نجد في كلِّ مجالٍ طبقاته المتعاقبة زمنًا من المؤلفين المتأثرين بعضهم ببعض والآخذين بعضهم عن بعض، مع محاولة اللاحق - الواعي بجهود سابقيه - الإضافةَ إلى ما قدّمه السابق. وفي الوقت الذي تتتابع فيه الطبقات المعرفية لهذا المجال أو ذاك تنتشر أفكارُ المجال الواحد في المكان لتغطّي أرجاءَ العالم العربي والإسلامي. وهذا هو المحور الثاني للمستوى الأول. حتى إنَّ العالِمَ الذي نشأ وانتشرت مؤلفاته في المشرق - مثلاً - تُعرفُ أفكارُه في المغرب، والعكس أيضا[1].

وحدةُ كلِّ مجالٍ من مجالات التراث إذًا متحققةٌ على محورين: رأسي وأفقي، وفي المحور الأول يحدّثنا شوقي ضيف عن وحدة الدين، وكيف عمّمَ القرآن الكريم كلاًّ من وحدة الدين وكذلك وحدة اللغة حتى بين من لم يتابعوا دينه، وما يصدق على وحدة التراث الديني يصدق على التراث النحوي واللغوي والبلاغي وبقية المجالات، ومنها التراث الأدبي: شعره ونثره، وهو ما سنعود إليه.

أمّا على المحور الأفقي - محورِ الانتشارِ في المكان أو انتشارِ الأفكار والأُسسِ المعرفيّة الخاصة بهذا المجال أو ذاك في شتّى بقاعِ العالم العربي والإسلامي - فذلك أيضًا ما سجّله وفصل الحديث فيه في

---

(١) راجع: شوقي ضيف: فصول في الشعر ونقده. (حاضر الشعر العربي متصل بماضيه). القاهرة: دار المعارف. ١٩٧١. ومقاله (وحدة التراث) مجلة فصول - العدد الأول من المجلد الأول أكتوبر ١٩٨٠.

مقالاته وكتبه، وقد رأى فيه نوعًا من التوحّد يعادل التوحّد على المحور الآخر (الرأسي)، فإذا كان تتابعُ الأفكارِ في المجال الواحد وانتقالها زمنيًّا من جيل إلى جيل مع ما يضيفه اللاحق إلى ما أفاده من السابق يمثّل ضمان الامتداد في الزمان . فإنَّ انتشارَ الأفكارِ والمعلوماتِ وامتدادِها بين أبناء الزمان الواحد في شتّى بقاع الوطنِ العربي والإسلامي يمثل ضمانَ الامتدادِ في المكان، وكلاهما الامتداد في الزمان والامتداد في المكان يمثّلان الضمانَ لوحدةِ التراث العربي، واستمرار خصائصه الأصيلة عبر عصوره المتعاقبة وفي مختلف بيئاته.

ذلك ما كرّر شوقي ضيف الحديثَ عنه، مؤكّدًا أنّه على الرغم من الطول الزمني والامتداد المكاني لعصرٍ - كعصرِ الدول والإمارات مثلاً - في تاريخ الأدب العربي، فإنَّ طوله "لا يَعْني أيَّ تفاصُل روحي أو فكري بين دوله وإماراته، فقد كان هناك دائمًا شعورٌ عام في كل مكان بأنَّ هذه الإمارات والدول جميعًا إنما هي وطنٌ واحدٌ لا تُحْدثُ فيه الانقسامات أيَّ تقاطع علمي أو أيَّ تنابذ أدبي" . ويضربُ المثلَ على ذلك بسلوك عُلَماءِ التراجم الذين كانت كتبهم العامة أو في الفنون المختلفة - كالقراءات أو التفسير أو النحو أو الفقه وفروعه، وكذلك تراجم الشعراء - في كلِّ هذه الميادين كان العلماء يجمعون تراجمَ أصحابِ العلم أو الفن في الوطن العربي كلّه "متناسين - بل مهملين - الفواصلَ السياسيّةَ والجغرافيّةَ بين الأقاليم والبلدان"، ومَثَلٌ آخر من شرح المتون المهمّة والدواوين، فتلخيص "المفتاح" الذي صنعه الخطيب القزويني الدمشقي يشرحه علماء من مصر ومن المغرب ومن أقصى المشرق، و"ديوان المتنبي" يشرحه ابن جني والعُكْبري في العراق، وابن المستوفى في إرْبِل، وأبو العلاء المعرّي في الشام، والواحدي في إيران، والإفليلي وابن سيده في الأندلس. فكأنَّ الكِتَابَ حين يُؤلَّفُ يُصْبح مِلْكًا لعلماء العالم العربي جميعهم، وكأنَّ ديوانًا مثل ديوان المتنبي "ليس ديوانَ بلد بعينه، وإنما هو ديوانُ الأُمّة العربية جميعها"[1] .

وهو يُكَرِّرُ نَفْسَ الرأي في كتابه عن مصر والشام، فـ "ينبغي أن لا يتبادر إلى الأذهان . . . أنّ طولَ هذا العصر وكثرة الدول والإمارات فيه دفعا إلى تقاطع روحي أو وجداني أو ذهني بين إماراته ودوله،

---

(١) شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات: الجزيرة العربية . العراق . إيران. الطبعة الأولى. القاهرة: دار المعارف. ١٩٨٠. ص٦.

فقد كان بين شعوبها تواصلٌ لا ينقطع أشبه بتواصل ذوي الأرحام، وهو تواصلٌ أحسَّه أسلافُنا الذين كانوا يجمعون في كتب اختياراتهم نماذجَ من الشعرِ العربيّ في كلِّ مكانٍ"(١).

هذا الحديث عن وحدة التراث العربي والإسلامي إنما يصدق على ما وصفناه بـ (المستوى الأول) من الوحدة، والذي يَعْني تسلسل طبقات الفكر في المجال الواحد زمنًا وانتشارها مكانًا، جامعة بين التطوّر من جهة والاحتفاظ بالجوهر من جهة ثانية.

أما المستوى الآخر الذي نلحظ إدراك شوقي ضيف له وصدوره عنه في درسه للأدب فهو التفاعلُ الفكري الذي يسري بين مجالات هذا التراث (المجالات التي سبق الحديث عن الوحدة الخاصة في كُلٍّ منها)؛ فالفلسفة - مثلاً - تتّصلُ بالتفسير أو يتصل هو بها، والدينُ يتّصلُ بالفلسفة أو تتّصلُ به، والمنطقُ يتّصلُ بالنحو واللغة أو يتّصلانِ به، وقل مثل هذا في علم الكلام والفلك والكيمياء والرياضة وغيرها. والجميعُ يتّصلُ بالأدب أو يتّصلُ به الأدب، مع كلِّ ما يترتّبُ على هذه الصلات من الآثار التي تند عن الحصر، والتي لا مفرّ من الصدور عنها في دراسة الأدب.

-٣-

أما المُسلَّمةُ الأخرى التي آمن بها شوقي ضيف وانطلق منها - وهي خضوع الأدب العربي لسُنّة التطور والتجديد - فقد ظهر حماسُه لها وصدورُه عنها هي الأخرى منذ وقتٍ مبكرٍ، منذ أصدر كتابه الفذّ "الفن ومذاهبه في الشعر العربي" سنة ١٩٤٣، حيث تصدّى لِرَسْمِ المذاهبِ الفنّية التي انتظمت هذا الشعر، من (صنعة) و(تصنيع) و(تصنُّع)، والتي يعدُّ كل مذهب منها تطويرًا وتجديدًا بالقياس إلى ما قبله، وهو حُكْمٌ ينطبقُ على كتابه الموازي "الفن ومذاهبه في النثر العربي" ١٩٤٦. ثم كان كتابه الصريح في الموضوع، وهو "التطوّر والتجديد في الشعر الأموي" ١٩٥٢. ثم بياناته المتعددة - في كتبه الأخرى - التي تؤيّدُ الموقفَ نفسَه.

ففي مقدّمته لكتاب "العصر الإسلامي" ١٩٦٣ يقول: لقد "دفعتني النصوصُ الكثيرةُ في عصر صدر الإسلام إلى نقض الفكرة التي شاعت في أوساط الباحثين من عرب ومستشرقين، إذ ذهبوا يزعمون أنّ

(١) شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات: مصر - الشام. القاهرة: دار المعارف.. ١٩٨٤. ص٦.

الإسلامَ انحصر عن أَثَرٍ نَحيلٍ في أشعار المخضرمين. فهو زعمٌ غير صائب . . . فقد أتمَّ اللهُ على هؤلاء الشعراء نعمةَ الإسلام . . . وقد مضوا يصدرون عنه في أشعارهم. . . وبالمثل صدروا عنه في نثرهم. ثمَّ كان عصرُ بني أميّة، عصر امتزاج العرب بغيرهم من الأمم وانسياحهم في مشارق الأرض ومغاربها، مما أذكى في نفوسِهم جذوةَ الشّعرِ فإذا هو يحيى في أوطان جديدة خصبة . . . وقد أخذ الشعراءُ يخضعون في كلِّ مكانٍ لمؤثرات مختلفة: بيئية ودينية وحضارية وثقافية واقتصادية"، وفي ظلال هذه الظروف الجديدة "اندفع الشعراء . . . ينهضون بالشعر ويتطوّرون به في فنونه وأغراضه"[١] . ويقول في مقدّمة الطبعة الأولى من كتابه "التطور والتجديد في الشعر الأموي": "يقوم هذا البحثُ على أُسسٍ نظريّة جديدةٍ تُناقضُ أشدَّ المناقضة ما استقرَّ في نفوسِ الباحثين في الشعر العربي، من أنَّ الطبقةَ التي كوّنها هذا الشعر في عصر بني أمية تشبه تمام الشبه الطبقةَ الجاهليّةَ إنْ لم تتحد معها في خصائصها الفنية تمام الاتحاد . . . ولا يعرف تاريخ الشعر العربي حُكْمًا جائرا على حقائقه الأدبية مثل هذا الحكم . . . ولا رَيْبَ في أَنَّ العربَ ليسوا بِدْعًا من الأممِ والشعوبِ، بل هم كغيرهم يتطوّرون ويتأثّرون بالمكان والزمان وظروفهما . . . ومن المخالفة لطبائعِ الأشياءِ أَنْ تكونَ الطبقة الفنية التي كوّنها الشعرُ العربيُّ في هذه الحياة الجديدة مماثلةً للطبقة الفنية الجاهلية تمام المماثلة، فقد اختلفت الحياةُ في ينابيعها وأَصْبحَ العربيُّ يعيشُ معيشةً جديدةً، ويقعُ تحت مؤثراتٍ دينيّةٍ وحضاريّةٍ لم يكن يَعْرفُها في الجاهلية. . . ولعلَّ في هذا كلّه ما يدلُّ . . . على أَنَّ العربَ لم ينتظروا إلى العصرِ العبّاسيِّ ليُجدّدَ لهم الموالي شِعْرَهم . . . إذ أحسُّوا إحساسًا عميقًا واضحًا أنّهم امتدادٌ لقديم ونهوض بجديد، فاستقرَّ في شعرهم كثيرٌ من التقاليد الأدبية الموروثة، وفي الوقت نفسه اندفعوا يمثّلون هذا الجديد وما انطوى فيه اندفاعا شديدا"[٢] .

أما الشعرُ العبّاسيُّ فيختلف عن سابقه، "فقد دَارتْ عجلةُ الزمنِ، وانتقل صانعُ الشّعْرِ من البادية إلى المدينة، ودخلت الشِّعْرَ العربيَّ في أثناء ذلك عناصرُ جديدةٌ من الحضارة والجنس والثقافة . . . ولمّا خرجتُ إلى القرن الرابع رأيتُ مذهبًا جديدًا يعمُّ فنَّ الشعر وصناعته، وهو مذهبٌ كان يقومُ على إعادةِ الصور المطروقة والمعاني الموروثة بأساليب من اللف والدوران وإتيانِ المعنى من بعيد، ثم يحاول الشاعر

---

(١) شوقي ضيف: العصر الإسلامي. القاهرة: دار المعارف. ص ٥،٦ .

(٢) شوقي ضيف: التطور والتجديد في العصر الأموي. القاهرة: دار المعارف. ص٧ ،٨، ١٠ .

بعد ذلك أن يضيفَ تعقيدًا إلى أساليب الزخرف والتنميق السابقة، أو يضيف تعابيرَ وتراكيبَ شاذة من نَحْوٍ وغريبٍ، أو تشيّع، أو تصوّف أو تفلسف"[١].

هكذا تمثّل ملاحظةُ التجديد وملاحقتُه جهدًا أساسيًّا في متابعة الخطِّ العام لسير الأدب العربي عبر تاريخه، مما يشدّد على ضرورة متابعة العلاقات الجديدة: ماديّة ومعنوية، مما يتّصلُ بالسياسة أو الدعوة العباسية، أو الجنس ونزعاته، أو الحضارة والتراث الثقافي الأجنبي، أو اللغة وما جَدّ فيها من أساليب. . . وغير ذلك[٢].

-٤-

ذلك عن مُسَلّمتيْ: الوحدة والخضوع لسُنّة التطوّر، وحدة التراث عمومًا وخضوعه - ومنه التراث الأدبي - لسُنّة التطوّر.

أمّا على صعيد المنهج فقد استقرَّ شوقي على الأخذ بالتكامل، ورأى من الصواب العملَ على النفاذ إلى الظاهرة الأدبيّة من جوانبها المتعددة، أو لنقل: رأى أنْ يدخلَ إليها عبر العوامل الأكثر تشابكًا معها وتأثيرًا فيها. هذه العوامل قد تكون هي ظروف السياسة، أو مشاكل الثقافة وحياة العقل، أو عصبيّة العرق، أو التكوين الاجتماعي والطبقي، وقد تكون المكانَ بما له من خصوصيّة في العديد من النواحي.

من هنا كان سَعْيُه إلى الإحاطةِ بكلِّ ما يعتمل في نسيج المجتمعات والأقاليم التي يؤرّخُ لأدبها من تيّارات: سياسية واجتماعية وعقلية. . . وغيرها؛ لما لهذه التيارات من آثارٍ على الظاهرةِ الأدبيّةِ في حالةِ ثباتها وفي أحوال تطوّرها، وذلك ما يصرّحُ به في كثيرٍ من مقدمات كتبه. يقول في مقدمة "العصر العباسي الأول" ١٩٦٦: "كان طبيعيًّا أن أبدأ . . . بدراسة الحياة العبّاسيّة التي فرضت نفسها على الأدباء العباسيين فرضًا، سواء الحياة السياسية وما كان يجري فيها من نُظم وظُروف وأحداث مختلفة، أو الحياة الاجتماعيّة وما كان يشيع فيها من تحضّر وترف وشغف بالغناء، وإغراقٍ في المجون وزندقة وزهد ونسك.

---

(١) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه. مقدمة الطبعة الأولى. القاهرة: دار المعارف. ١٩٤٣. ص٩.
(٢) المرجع السابق. ص٥.

أو الحياة العقلية وما التحمَ بها من ترجمة الثقافات الأجنبيّة ونشاط الحركة العلمية، ونقْلِ عُلومِ الشُّعوبِ المستعربة، ووضع العلوم اللغوية والتاريخ والعلوم الدينية والكلامية"(١).

ويقول في مقدمة "العصر العباسي الثاني" ١٩٧٣: "تناولتُ . . . الحياةَ السياسيّةَ وما حدثَ فيها من تحوّل مَقاليد الحُكْم من أيدي الفرس إلى أيدي الترك . . . ففسدت الأداةُ الحكوميّةُ فسادًا شديدًا. وكانت هناك طبقة تغرقُ في الترفِ والنّعيم، وكان جمهورُ الشّعْب يعيشُ في الضنك والبؤس. وظلّت الحياةُ العقليّةُ مزدهرةً بما نُقل - وما كان ينقل - من الثقافات الأجنبية، مما هيّأ لظهور فلاسفة عظامٍ وعلماء بارعين في جميع العلوم: اللغوية والبلاغية والنقدية والتاريخية والكلامية"(٢).

وتوازيًا مع ما سبق ملاحظتُه من آثار السياسة والفكر والعرق . . إلخ، لم يفت شوقي ضيف أن يلحظَ أثرَ البيئة في طبع التراث - خاصة التراث الأدبي - بطابعٍ مميز، وذلك ما جعل حديثَه في تاريخ الأدب العربي يتشعّبُ بَعْد العصر العباسّي الثاني بحسب البيئات المختلفة، خاصةً بعد أنْ أصبحَ كل منها يمثل دولة أو إمارة مستقلة أو شبه مستقلة، أي: إنّ حديثَه عن الأدب فيما عرّفه بـ (عصر الدول والإمارات) قد ضَمَّ حاصلَ الوضعِ التاريخي والسياسي إلى حَاصلِ طبيعة العرْقِ والبيئة الطبيعيّة والظروفِ الحضاريّة.

وتجلّى هذا في تخصيصه كلّ إقليم أو أكثر - مما ظللته ظروف مشابهة - بجزء من تاريخه، فهذا جزء لمصر وهذا جزء للشام وهذا للأندلس . . . إلخ، مسجّلاً ما كان لبعض هذه الأقاليم من ريادة أو تأثير في هذا المجال أو ذاك.

من هذه الأقاليم - على سبيل المثال - مصر التي كانت الروحُ العلميّةُ متّقدة فيها من قديم، ثم "أخذت تزداد اتّقادًا واشتعالاً منذ دخولها في دين الله، ومضت تنهض بدور علميٍّ خصب؛ مما جعل المغرب منذ القرن الثاني الهجري يحمل عنها قراءة وَرْش للذكر الحكيم إلى اليوم، وبالمثل يحمل عنها مذهب مالك في الفقه، ويحمل أبناؤها عن الشافعي مذهبه الفقهي وينشرونه في الحجاز والشام والمشرق جميعه، وتكتب السيرة النبوية الزكيّة وتُشيعها في العالم العربي، وتنتج ذا النون مؤسّسَ التصوّف الإسلامي. وتنشط بها -

(١) شوقي ضيف: العصر العباسي الأول. القاهرة: دار المعارف. ص٥.
(٢) شوقي ضيف: العصر العباسي الثاني. القاهرة: دار المعارف. ص٥، ٦.

منذ زمن الدولة الطولونية - حركةٌ أدبيّةٌ وعلمية واسعة، حتى ليؤلِّف الصولي كتابًا عن شعرائها، ويؤلِّف ابن الداية كتابًا عن أطبّائها، ويؤلِّف ابن يونس الصوفي كتابًا عن علمائها، وعنهم يحمل الأندلسيّون في النصف الأول من القرن الرابع الهجري معجمَ الخليل ابن أحمد في اللغة وكتاب سيبويه في النحو"[١].

ثم يقول: "ومنذ أوائل هذا العصر [يعني: عصر الدول والإمارات] يتكاثرُ علماؤها ويبرز منهم أعلامٌ في علوم: الأوائل والجغرافيا، وفي علوم: اللغة والنحو والبلاغة والنقد وعلوم القراءات والتفسير والحديث النبوي والفقه والكلام والتاريخ، وينهض بها الشعر منذ الدولة الطولونية ... ويتكاثر أعلامُه في الشعر الدوري والرباعيّات والموشّحات ... وينهض النثر ويزدهر منذ العصر الفاطمي، وتتكاثر أعلامُه في الرسائل الديوانية والشخصية وفي المقامات ..."[٢].

وأمّا الشام فكان فيها "تراثٌ يوناني علمي فلسفي، وأخذت تنشط فيها بعد الفتح الإسلامي حركةٌ علميّةٌ خصبة، وكانت المدارس تكثر بها منذ أيام السّلاجقة، وكان لها من قديم مشاركةٌ في حركة الترجمة وفي علوم الأوائل والجغرافيا، وأخذ أعلامها يتكاثرون في علوم: اللغة والنحو والنقد والبلاغة، وفي القراءات والتفسير والفقه والكلام والتراجم. وقد تعربت سريعًا وأخذ الشعر ينشط فيها لزمن بني أمية وبعدهم. وأخذ شعراؤها النابهون يتكاثرون في الشعر الدوري والموشّحات وفي المديح والحكمة والفلسفة وفي التشيّع وفي الغزل وفي الزهد والتصوف والمدائح النبوية. وقد عُنِي غيرُ شاعرٍ بالزجل والشعر الشعبي"[٣].

وأما الأندلس فقد نفذت "في أثناء هذا النشاط الشعري الجمّ إلى ابتكار فنّ شعريّ جديد هو فن الموشحات... صورة أندلسية حديثة تطوّرت عن المسمطات المشرقيّة المعروفة في الشعر العربي"[٤]. كما يتحدث عمّا أضافه علماء الأندلس في مختلف العلوم من مثل البِطْرَوْجِي الأب الحقيقي لعلم الفلك الحديث، ومثله الزهراوي في الجراحة، وعبد الملك بن زهر في الطب الإكلينيكي، وابن البيطار في الصيدلة. أما الفلسفة فقد ازدهرت وتتلمذ الغربيّون على فلاسفة المسلمين، خاصة ابن رشد"[٥].

---

(١) شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات: مصر ـ الشام. ص٦.

(٢) انظر: المصدر السابق. ص ٨.

(٣) انظر: المصدر السابق. ص٨.

(٤) شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات: الأندلس. القاهرة: دار المعارف. ١٩٨٤ ص٧.

(٥) انظر: المصدر السابق، ص ٦.

وهو في كلٍّ ذلك حريصٌ على أن يُبرزَ مواضع الإشراق في الصورة، غير منقادٍ لما شاع قبله من أفكار، فهذه العصور التي وُصفت بالجمود والعقم في الإبداع. ويقصد العصر المملوكي على وجه الخصوص. قد أنتجت تلك الموسوعات الضخمة في تاريخ الثقافة العربية، مثل "لسان العرب" لابن منظور (ت٧١١هـ)، و"نهاية الأرب" للنويري (ت٧٣٣هـ)، و"مسالك الأبصار" لابن فضل الله العمري (ت٧٤٩هـ)، و"صبح الأعشى" للقلقشندي (ت٨٢١هـ) . . . وغيرها.

—٥—

الأخذُ بالتكامل في المنهج اقتضته - كما سبق القول - طبيعةُ الظروف المحيطة بالظاهرة المدروسة وتنوّع العوامل المؤثرة فيها، فضلاً عن ضخامة الظاهرة نفسها وتعدّد مجالاتها وتفاعلها بعضها مع بعض، ثم خضوعها لسُنّة التطوّر والتجديد اللذين يحدثان كنتاج لعوامل كثيرة: بيئية وحضارية واقتصادية وثقافية. . . وغيرها. ولعلّ هذه الأخيرة - أعني: العوامل الثقافية - هي أهمُّها؛ إذ ثبت أن العاملَ الثقافيَّ بمعناه العام هو الأكثر تأثيرًا في إحداث التجديد وتحديد طبيعته. ذلك أنَّ هذا العامل ينظر - في رأينا - إلى كلٍّ من طبيعة الظاهرة التي يجري عليها التجديد وتاريخها، ثم العوامل التي أثرتْ فيها نتيجةً لتفاعل المجالات الذي سبق أن تحدّثنا عنه.

كلُّ ذلك يمدّنا بتفسير حديثه عن كثرة المعارف التي استشعر الحاجة إليها وتنوعها وهو يتصدّى لكتابة تاريخ الأدب العربي. وعلى سبيل المثال يطالعنا قوله في مقدمة الجزء الخاص بـ "الجزيرة العربية - العراق - إيران": "هذه الدراسة المتشعّبة لتاريخ الأدب العربي في الجزيرة العربية والعراق وإيران طوالَ حقبٍ ممتدّة من العصر العباسي الثاني إلى العصر الحديث. جعلتني أرجع إلى كلِّ ما استطعتُ من كتب التاريخ والجغرافية والثقافة والأدب: شعرًا ونثرًا؛ لأجمعَ منها المادةَ العلميّة التي تتطلبها الدراسة، ورجعتُ إلى طائفة من كتب المحُدثين من العرب والمستشرقين"[1].

ويردّدُ نفسَ المعنى في مقدّمته لـ "عصر الدول والإمارات: مصر - الشام"، يقول: "وهذه الدراسة المستفيضة لتاريخ الأدب العربي في مصر والشام جعلتني أرجع إلى كلِّ ما استطعت من المصادر والمراجع

(١) شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات: الأندلس. ص٨.

المتّصلة بكتب التاريخ والتراجم وعلوم الأوائل والعلوم الدينية في مصر والشام، وكذلك رجعت إلى كل ما استطعتُ من الشعر ودواوينه ومن الكتابات الأدبية في القطرين"[١] .

وسببُ الحاجةِ إلى كلِ هذه المصادر والمراجع مفهوم، وهو اتساعُ المعارف وتعدّد مجالات الثقافة والعلم في الأقاليم العربية والإسلامية التي يؤرخ لآدابها .

من هنا - في رأينا - تبدو عضويّةُ الرابطةِ بين نتاجه في تاريخ الأدبِ، ودرسه والترجمة لأعلامه وفنونه. وهذه المؤلفات والتحقيقات في مختلف فروع الثقافة العربية والإسلامية، إذ لم يكن بُدٌّ من مقابلة ضخامة الإطار الثقافي المحيط بالنتاج الأدبي المدروس بإطار مقابل من أدوات الباحث تساعد على استيعابه، وتُعِينُ على تحليله وتفسيره.

-٦-

وإذا كان وعيُه بغايتِه قد ظهر مبكّرًا . فإنَّ وعيَه بضخامة الوسائل الكفيلة بتحقيق هذه الغاية قد كان مبكرًا كذلك. فلم تنتّه السنواتُ العشرون من عمره العلمي بعد حصوله على الماجستير سنة ١٩٣٩ وحتى سنة ١٩٥٨ - تاريخ صدور الجزء الأول من موسوعة تاريخ الأدب العربي، وهو العصر الجاهلي. حتّى كانت ملامحُ رحلته العلميّة أو خيوطها الأساسية قد قَارَبت الاكتمالَ، وأقول: "قاربت الاكتمال" لأنَّ بعضَ خيوطٍ أخرى سوف تُضَافُ إليها فيما بعد، كما أنَّ حلقات تاريخ الأدب العربي قد صدر تباعًا . أما في تلك السنوات العشرين فقد برزت الصُّوى الأساسيّةُ التي تحدد معالمَ الطريق واتجاهاته، حيث شملت أعماله في تلك الفترة كلاً من التحقيق والتأليف؛ وتنوّع التحقيقُ ليشمل كُتبًا في مجال النحو: "الرد على النحاة" لابن مضاء ١٩٤٧، والتاريخ العام: "نقط العروس في تواريخ الخلفاء " لابن حزم ١٩٥١، والتاريخ الأدبي: "خريدة القصر" (قسم شعراء مصر) للعماد الاصفهاني ١٩٥١، و"المغرب في حلى المغرب" لابن سعيد ١٩٥٣، ١٩٥٥، والنصوص الأدبية: "رسائل الصاحب بن عباد" ١٩٥١، كما شمل بعضَ الكتب في تاريخ الأدب من تاريخ العصر الحديث، وهو كتاب "تاريخ آداب اللغة العربية" لجرجي زيدان الذي صدر سنة ١٩١١، وحققه شوقي ضيف سنة ١٩٥٧ .

---

(١) شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات: مصر، الشام. ص٩ .

أما التأليف فقد شمل تاريخ النقد: "النقد الأدبي في كتاب الأغاني" ١٩٣٩، والنقد ١٩٥٤، والدراسة الفنية للشعر والنثر: "الفن ومذاهبه في الشعر العربي" ١٩٤٣، و"الفن ومذاهبه في النثر العربي" ١٩٤٦، و"التطور والتجديد في الشعر الأموي" ١٩٥٢، كما شمل دراسة الشعر والأدب العربيين في العصر الحديث: "دراسات في الشعر العربي المعاصر" ١٩٥٣، و"شوقي شاعر العصر الحديث" ١٩٥٣، و"الأدب العربي المعاصر في مصر" ١٩٥٧، كما شمل الترجمة الشخصية: "ابن زيدون" ١٩٥٤، وفنون الأدب العربي مثل: "المقامة" و"الرثاء" ١٩٥٥.

هذه المرحلة تُوّجتْ بصدورِ الحلقة الأولى من سلسلة "تاريخ الأدب العربي"، وهي كتاب "العصر الجاهلي" سنة ١٩٥٨. وقد يكون من اللافتِ أن تصدر أولى حلقاتِ السلسلة بعد أخراها ـ أعني: كتاب "الأدب العربي المعاصر في مصر" ١٩٥٧ ـ مما يَعْني تدرّج تفكيره في مشروع التاريخ الشامل للأدب العربي من مرحلة ارتياد الطريق بمجموعة التحقيقات - من "نقط العروس" إلى "المغرب" إلى "الخريدة" إلى "تاريخ اداب اللغة العربية" لجرجي زيدان - ثم زرْع العلاماتِ المميّزة خاصة في بدايته ونهايته، وهي العلامات التي تمثلت في دراساته الشاملة "الفن ومذاهبه في الشعر والنثر"، وكذلك في دراساته المحددة بعصر من العصور: "التطور والتجديد في الشعر الأموي"، و"الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية"، و"الأدب العربي المعاصر في مصر".

ويبدو أن ذلك - أعني: ارتياد الطريق واختباره أولاً، ثم السير فيه بثقة واطمئنان بعد ذلك - ظلّ غالبًا دَيْدَنَه، خاصةً وهو يتابع إصدار موسوعته في تاريخ الأدب العربي. فكتابه عن العصر الجاهلي سبقه ما كتبه في "الفن ومذاهبه" عن مذهب الصنعة عند الجاهليين، كما سبقه قراءته لكتاب الأغاني بحثًا عن النقد الأدبي فيه. وكتاب "العصر الإسلامي" سبقه كتاب "التطور والتجديد في الشعر الأموي"، وكتاب "الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية". وكتابه عن مصر - ضمن عصر الدول والإمارات - سبقه تحقيقه للقسم الخاص بالفسطاط من كتاب "المغرب" لابن سعيد، وتحقيقه لقسم شعراء مصر من كتاب "خريدة القصر وجريدة العصر" للعماد الأصفهاني. وكتابه عن الأندلس - ضمن عصر الدول والإمارات

أيضًا - سبقه تحقيقه لعدد من الكتب من إنتاج الأندلس، منها: "نقط العروس في تواريخ الخلفاء" لابن حزم، و"المغرب" (قسم الأندلس) لابن سعيد الأندلسي، و"الدرر في اختصار المغازي والسير" لابن عبد البر.

كما جاءت دراساته النحوية: "المدارس النحوية" ١٩٦٨، و"تجديد النحو" ١٩٨٢، و"تيسير النحو التعليمي قديمًا وحديثًا" ١٩٨٦. بعد تحقيقه لكتاب "الرد على النحاة" لابن مضاء القرطبي ١٩٤٧.

وقد قلتُ: إنَّ خيوطًا جديدةً سوف تضاف إلى نسيج ثقافته ومؤلفاته بعد العقدين الأولين من حياته العلمية ١٩٣٩. ١٩٥٨، وكان الأدقُّ أن أقولَ: إنَّ خيوطًا أخرى سوف تظهر - لا أن تضاف - لأنَّ ما أعنيه وهو الجانب القرآني والإسلامي عمومًا من مؤلفاته. لم يكن بعيدًا عن ثقافته وتكوينه الأول، وهو صاحب النشأة الأزهريّة، كلُّ ما هنالك هو تأخّر ظهورِ هذا الجانب من مؤلفاته بالقياس إلى غيره. ولكنَّ المهمَّ هنا هو خضوعُ هذا الجانب من مؤلفاته لسُنّة التدرّج وارتيادِ الطريقِ وتمهيده التي سبق الحديث عنها.

إن تفسيرَه الشامل "الوجيز" ١٩٩٥م يظهر إلا بعد "تفسير سورة الرحمن وسور قصار" ١٩٧١، وكُتُبُه: "عالمية الإسلام"، و"الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة"، و"القسم في القرآن"، و"معجزات القرآن" - لم تظهر إلا بعد تفسيره الوجيز، على أنَّ كلَّ ما مرَّ من كتبه الإسلاميّة - باستثناء "سورة الرحمن وسور قصار" - لم يظهر إلا بعد تحقيقه لكتاب "السبعة" لابن مجاهد ١٩٧٢. ومعروفٌ أن كتب القراءات تناقش أدقَّ تفاصيلِ النصّ القرآني وتحمل قارئها على تدبر كل ما يقرأ، بحيث يُعَدُّ تحقيق كتاب في القراءات تمهيدًا أساسيًّا لأية محاولة ناجحة للتفسير، كما يُعَدُّ التفسيرُ - بدوره - مقدمةً للحديث عن أيٍّ من المداخل الجزئية مما يتعلق بالمضمون أو الإعجاز أو الأساليب... إلخ.

ولا شكَّ أنَّ كتابه "البلاغة تطور وتاريخ" ١٩٦٥ يمكن عَدّهُ امتدادًا لكتابه عن "النقد" ١٩٥٤ الذي يُعَدُّ - بدوره - توسيعًا لرسالته للماجستير، والتي كان موضوعها: "النقد الأدبي في كتاب الأغاني" ١٩٣٩.

وهناك حزمةٌ أخرى من مؤلفاته في الترجمة الشخصية، تضمّ كتبَه عن شوقي وابن زيدون والعقاد والبارودي، وكتابه "محمد خاتم المرسلين". ومعظم كتب هذه المجموعة جاء بعد كتابه "الترجمة الشخصية" ١٩٥٦ الذي رسم فيه ملامح هذا الفن.

-٧-

هكذا - كما نرى - تتعدّدُ مجالاتُ التأليف في تراث شوقي ضيف وإن كان المجالُ الرئيسي فيها - وهذا واضح - هو مجالُ التاريخِ للأدبِ والدّرْسِ الفنيّ له، ولكن إلى جانب هذا المجال الرئيسي تلوحُ مجالاتٌ كثيرةٌ رادها وطرق البحث فيها، وربما مضى فيها إلى شوط بعيد، فهو قد حقّق وألّف في النحو واللغة، وحقّق وألّف في الدرس القرآني، كما ألّف في: البلاغة والنقد والترجمة الشخصية والرحلات ومناهج البحث الأدبي والحضارة الإسلامية. . . وغيرها .

وهنا يتبادر السؤال: ما العلاقة بين تاريخ الأدب ودرسه الفني من ناحية، وهذه المؤلفات والتحقيقات الكثيرة في مجالات تبدو - للنظرة المتسرّعة - بعيدة عن درس الأدب وتاريخه؟

أين مِنْ تاريخِ الأدب ودرسه الفني التأليفُ والتحقيقُ في النحو واللغة والبلاغة والقراءات والتفسير والتاريخ والسّيَرِ؟ أين مِنْ تاريخ الأدب ودرسه الفني تحقيقُ "الرد على النحاة " لابن مضاء، والتأليفُ في المدارس النحويّة وتيسيرِ النحو وتبسيطه، وتحقيقُ "السبعة في القراءات" لابن مجاهد، و"تفسير سورة الرحمن وسور قصار"، وتقديم تفسير كامل للقرآن، والكتابة عن "الحضارة الإسلامية من القرآن والسنة" و"عالمية الإسلام"، وعن "محمد خاتم المرسلين"، وتحقيق "نقط العروس" لابن حزم، وتحقيق "الدرر في اختصار المغازي والسير" لابن عبد البر و"المغرب في حلى المغرب" لابن سعيد ؟

لقد تصوّر البعضُ أنَّ هذا التطوافَ وهذه الرحلة إلى مثل هذه المجالات من قبيل التسطيحِ للأمورِ والوقوفِ عند ما ينجذبُ إليه القلمُ عفوَ الخاطرِ، ومن هنا جاء وصفُ (الموسوعيّة) حاملاً - خطأً - لهذه الظلال من المعنى، ولكنَّ الأمرَ في حقيقته بعيدٌ عن ذلك كلَّ البعد، وإذا شئنا أن نلمس علله البعيدة الراسخة في تفكير شوقي ضيف وجدنا أنَّ هذه العلل لا تبتعدُ عن حاجاته البحثيّةِ، أعني: عن غايتِه من مشروعه العلمي، وهي التأريخ للأدب العربي ودرسه دراسة فنية .

فطبيعةُ المادّة المدروسةِ - وهي الفن القولي بمعناه الخاص، والغاية المستهدفة، وهي التأريخ له ودرسه فنيًا - كلتاهما استوجبت هذا التعدد في أدوات الباحث الذي صرّح بهذه الحقيقة مرارًا كما سبق.

فشوقي ضيف المؤمنُ بوحدة التراث العربي وتماسكه وتفاعل عناصره المختلفة، والمؤمنُ في الوقت نفسه بأهميّة النظرة الشاملة إلى هذا التراث عند درسه ومحاولة فهمه إيمانه بتعدّد العوامل المؤثرة فيه - قد استوعب جيّدًا توجيه أستاذيه: طه حسين وأحمد أمين، بل استوعبَ حاصلَ التجربة العمليّة - أيضًا - في أنّه لكي يُحْسِنَ الباحثُ دراسةَ الأدبِ بمعناه الخاص - أي الفنَّ اللغوي الجميل في شتّى صوره - لابدّ له من أنْ يدرسَ الأدبَ بمعناه العام الذي يَعْني كلّ تراثِ الأمّة في: الفكر واللغة والدين والفلسفة والتاريخ والسياسة والاقتصاد . . . إلخ.

مُؤرّخُ الأدب - كما يقول طه حسين - "لا يستطيعُ أن يكتفي بمأثور الكلام ولا بهذه العلوم والفنون التي تتصل بمأثور الكلام اتصالاً شديدًا لتمكّننا من فهمه وتذوّقه، وإنما هو مضطر . . . إلى أنْ يدرسَ تاريخ العقل الإنساني، وهو مضطر إلى أن يدرس تاريخ الشعور . . . مضطر إلى أن يلمّ بتاريخ العلوم والفلسفة والفنون الجميلة وتاريخ الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية - أيضًا - إلمامًا يختلف إيجازًا وإطنابًا، ويتفاوت إجمالاً وتفصيلاً، باختلاف ما لهذه الأشياء كلّها من تأثير في الشعر والنثر أو تأثر بهما"[١].

نعم، صَدَقَتْ مُلاحظةُ طه حسين وأصاب تطبيقُ شوقي ضيف، فمن ذا الذي يستطيع أن يَفْهمَ قولَ أبي نواس لمن حكم عليه بالكفر لشربه الخمر:

لا تحظُر العفو إن كنت امرأً حرجا   فإنّ حَظْرَكَهُ بالدين إزراء

أو قول أبي تمام في وصف الخمر:

جهمية الأوصاف إلا أنّهم   قَدْ لقّبوها جوهرَ الأشياء
صفراءُ يلعب بالعقولِ حَبابُها   كتَلاعُبِ الأفعالِ بالأسماء

أو قول المتنبي محتقرًا بعض مناوئيه:

حولي بكلِّ مكانٍ منهمُ خِلَقٌ   تُخْطي إذا جئتَ في استفهامها بـ (مَنِ)

أو قول أبي تمام:

لا تُنكروا ضَرْبي لَهُ مَنْ دونه   مثلاً شَرودًا في الندى والبَاس

(١) [illegible]: في الأدب الجاهلي. القاهرة: دار المعارف. ١٩٢٧. ص ٣٧.

فالله قدْ ضربَ الأقلَّ لنوره　　　مثلاً من المشكاة والنبراس

أو قول النابغة للنعمان:

احكُم كحُكمِ فتاة الحيِّ إذ نظرتْ　　　إلى حمامِ شراعٍ واردِ الثّمدِ

أو قول الفرزدق:

أَبني كُلَيب، إنّ عَمَّيَّ اللّذا　　　قتلا الملوك وفكّكا الأغلالا

أو قول مروان بن أبي حفصة يمدح العباسيين، ويدافع عن حقهم في الخلافة:

شَهدتْ من الأنفال آخر آيةٍ　　　بتراثِهم فأردتُم إبطالهَا

أو قول أبي تمام:

ظَعَنوا فكان بُكايَ حولاً بعدهم　　　ثُمّ ارْعويتُ، وذاكَ حكمُ لبيدِ

من يستطيع أن يفهم هذه الأبيات إلا مَنْ له معرفةٌ كافيةٌ بعلمِ: الكلامِ والفلْسفةِ واللّغةِ والنّحْوِ والأسَاطيرِ والتّاريخِ والقُرآنِ وتفسيرِه والشّعْرِ والأَمْثالِ؟

وقد يَصِلُ الأمرُ إلى درجةٍ أكبرَ من التعقّد والتداخلِ بين المعارفِ والعلوم اللازم الإلمام بها لفهم نصٍ من النصوص، كما نجد في قول أبي العلاء:

تفهّمْ يا صريعَ البينِ بُشرى　　　أَتَتَ منْ مُسْتَقلٍّ مستقيل

دُعيتَ بصارعٍ فتداركْتَه　　　مبالغةٌ فرُدَّ إلى فعيل

كما قالوا (عليم) إذ أرادوا　　　تناهي العلمُ في الله الجليل

إنّ فهمَ هذه الأبياتِ يحتاجُ إلى معرفةٍ بالصرف، وإلى كلام في اللغة، وإلى المعرفة بمبدأٍ كلاميٍ أطْلقَ عليه ابنُ جنيّ (التراجع عند التناهي)، وربما إلى معارفَ أخرى.

وقَدْ لا يكونُ من باب المصادفة أن يختارَ شوقي ضيف أسماءَه للمذاهبِ الفنيّة للأدب العربي: شعره ونثره على نحوٍ لا يمكن المرورُ عليه بسهولة. لقد أطلقَ على هذه المذاهبِ أسماء: الصنعة والتصنيع والتصنُّع، وكأنّه يُشيرُ بوحدة الأَصْلِ وتنوّع الصّورِ الصرفيّة في مصطلحاته إلى الوعي المزدوجِ بوحدة الجوهر من ناحيةٍ، واستمرارِ الحركةِ في اتجاه التطوّر من ناحيةٍ أخرى، أوْ - وهو واردٌ - كأنّه يشيُر إلى ركنيْ المعرفة

اللازمين لصاحب التاريخ الفني للأدب، أعني: العلم بالجوهر (أي: الظاهرة المدروسة)، والعلم بالعوارض (أي: التطورات الفنية المتابعة)، وكلا الجانبين يستوجبُ إلمامَ الدارسِ بما لا يُحصى من المعارف، وذلك ما حرص عليه أستاذنا شوقي ضيف في جميع ما كتبه.

وإذا كان (دُرَّةُ) كتبِه في هذا المجال - وهو في نظري كتابه "الفن ومذاهبه في الشعر العربي"- قد صدر في مرحلةٍ متقدّمةٍ من حياته البحثيّة، فإنه يلوح لي أنَّ الكثيرَ مما صدر له بعد ذلك من دراسات في: النحو والبلاغة والنقد والتفسير ومناهج البحث، ومن تحقيقات لكتب من مجالات متنوعة وبيئات شتّى، يلوحُ لي كلَّ هذا النشاط بمثابة شاهدٍ على التزامه بمعرفة أدواته وسَعْيه إلى امتلاكها والسيطرة عليها، حتى وإنْ برز أكثرُها إلى الوجود بعد ظهور طليعة تاريخه الفنيّ للأدب العربي بجناحيه: "الفن ومذاهبه في الشعر"، و"الفن ومذاهبه في النثر".

نعم، إنّها قراءاتُه ومجالاتُ معارفه التي رادها وحصّلها وانتفع بها أولاً، فكانت أدواته المضمرةَ، ثُمَّ أخرجَها بعد ذلك في صورة مؤلَّفات وتحقيقات تَكْشفُ عن سعة اطّلاعه وقُوّة امتلاكه لأدواته، لتُضيف إلى المفهومِ الشّائعِ للموسوعيّةِ بُعدَ العمق، وإلى المفهومِ الساذجِ لتاريخِ الأدبِ - مفهومِ الدراسة من الخارج- مَعْنَى التّناولِ الفنّي والدراسة من الداخل، ولتؤكّد - من ناحيةٍ أخرى - التكاملَ الذي سَعَتْ هذه الدراسةُ إلى إثباته بين معارفه النظريّة من جهةٍ، ومَنْهجه وتطبيقاته العمليّة من جهةٍ ثانية.